الجزء الرابع

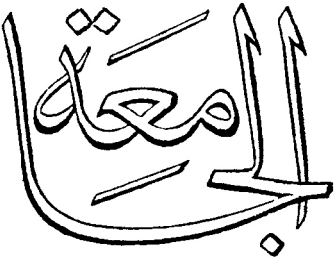

السنة الخامسة

مجلة اجتماعية علمية تهذيبية تاريخية

نيويورك — اول ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٦ ١٣ رجب سنة ١٣٢٤

فلسفة جمال الدين الافغاني

هل للافغاني فلسفة

قد يستغرب القارئ قولنا ان لجمال الدين الافغاني فلسفة . لان العلماء لا يسمون الرجل فيلسوفاً الاّ اذا كان صاحب مذهب خاص مبني على العلم الطبيعي انفرد به واخرجه للناس وصدقه خاصتهم . ولكن العالم النمساوي تيودور غومبز الذي وضع في هذا العام كتاباً في (فلاسفة اليونان) قال انه يسمي فيلسوفاً كل رجل مفكر في الحياة وشؤونها وكان لفكرته قوّة . ولذلك عدّ في جملة فلاسفة اليونان كثيرين من مفكريهم الذين يعدّون في الدرجة الثانية والثالثة بعد اساطين الدرجة الاولى . والافغاني رحمه الله لم يكن ذا مذهب فلسفي جديد يوءخذ منه ويؤثر عنه وانما كان طالب اصلاح ديني . ولكن القوة التي ابرزها من نفسه في مطالبته بهذا الاصلاح . والطريق الذي سلكه اليه . وتأثيره على الذين خلفوه وقرأوا عليه . وامتداد امواج الحركة الفكرية التي دفعها في حياته الى هذا الوقت بعد مماته بقوة تلامذته وعميدهم الشيخ محمد عبده — كل هذه امور تجعل له في تاريخ المشرق الادبي (مكاناً سنياً . ووساداً مثنياً) كما يقول الهمزاني . وتحدو بالمفكر تفكيراً سطحياً ان يعدّه كما يقول كثيرون مصدر الحركة الاصلاحية الاسلامية الحديثة

خصلة لبني المشرق

ولبني المشرق خصلة مستقبحة وهي ما يسميه الافرنج (داء الاشخاص) نعني انهم يقدسون كل شخص يرتفع بجاهه او علمه او رئاسته ويحنون الهام لدى كل شيء يصدر عنه دون ان يفكروا بتمحيصه وتحقيقه . واذا خطر لاحد منهم ان يجرأ على هذا الأمر الصعب ويركب هذا المركب الخشن عدوا عمله اعتداء وتهجماً . ولا غرابة في هذا الاعتقاد لانه شيمة قوم نشأوا في الذل والصغار وعبادة الامراء والرؤساء ونتيجة (التصورات الشرقية) المشهورة عند الافرنج بكونها تكبر الصغيرة وتصغر الكبيرة . او ان شئت فقل انها نتيجة ندرة (الرجال) عدمهم فاذا قام بينهم (رجل) غاروا عليه وضنوا به ضن الشحيح بدرهمه . وهذه الخصلة لولا ما ينشأ عنها من تأخير سير العلم وعرقلة سبيل الارتقاء وخلط المبادىء غثها بسمينها وصحيحها بباطلها لما كان لاحد ان يشكو منها

فغرضنا الآن في هذه المقالات كما اعلنا في الجزء الاول ان ننظر في الفلسفة (الافغانية والعبدية (١) نظراً مجرداً بقطع النظر عما يجب علينا من الاحترام والمراعاة لرجلين كبيرين صرفا حياتهما في خدمة مبادئها وبذلا في هذا السبيل كل مرتخص وغال حتى راحتهما وحريتهما في بعض الاحيان . ونحن نعيد هنا ما قلناه في الجزء الثاني من اننا قد نكون مخطئين في حكمنا ولكن شفيعنا سلامة النية والرغبة في تمحيص وتحقيق مبادىء يتوقف عليها حياة امم المشرق ونحن في جملتها

كتب الافغاني وعقمه

ولو كان بحثنا في مجرد حياة جمال الدين واعماله لكان هذا البحث مما يشك في فائدته او صحته لان كل فريق يمكنه ان يؤول مبادىء صاحب الترجمة واعماله بحسب ما تقتضيه اميالة . ولكن بحثنا هنا في مبادىء جمال الدين في كتبه . وقد قلنا كتبه ولا نظن انه ألف غير رسالته في (الرد على الدهريين) وهذا ما حمل مجلة المقتطف على ان تقول يوماً اذ سئلت لماذا لم تترجم جمال الدين الافغاني — انها لا تعرف شيئاً عنه لتبسط مبادئه وآراءه . وكانت لذلك العهد قد كلفت بهذه الترجمة الشيخ محمد عبده رحمه الله وكان يومئذٍ مستشاراً للمحاكم المصرية تخلصاً من الخوض في امور قد تعود باللائمة عليها . ولكن الاستاذ اعتذر يومئذٍ باعتلال صحته . ولعله كتب الترجمة التي نشرناها في الجزء السابق بعد

(١) نسبة الى الافغاني ومحمد عبده

ذلك التاريخ . او انه كتبها قبله في حياة الافغاني كما يُفهم من بعض عبارات وردت فيها ولكن كره ارشاد المقتطف اليها اما لتبدل رأيه في كثير مما ارتآه فيها او مجاملة لوسط سياسي جديد كان رحمه الله يعدّ نفسه لان يفوز بالقدح المعلى فيه لان روح تلك الترجمة كانت ضد السلطنة الانكليزية كما يتضح لمطالعها

فما نرويه ونستدل به في هذه الفصول على مبادىء الافغاني انما هو مأخوذ بلا شبهة من مبادىء الافغاني نفسه . والكلام كلامه الا الثوب العربي الجميل الذي نسجه له محمد عبده تلميذه مترجم الرسالة التي نحن الآن في صددها لان اصلها فارسي . وجدير بنا هنا ان نستغرب عقم الافغاني الذي لم يكتب سوى هذه الرسالة الصغيرة . لان من كان بهمة كهمته . وحماسة كحماسته . واقدام على انهاض الامم الاسلامية في الشرق كاقدامه . يُستغرب منه ان يرضى بهذا العقم ولا يختط في كتب مخصوصة الخطة التي كان قد رسمها للشرق في ذهنه . ولكن هذه الملاحظة تعيدنا الى القول السابق من ان الناس في الشرق يقيسون كبر الشخص وصغره بمقياس فاسد . فلو كان الافغاني في الغرب لما قعد عن ان يكتب في كل عام او عامين كتاباً يبرز فيه ما تحدثه به نفسه ويجول في فكره من نتائج عمله واختباره . لان قيمة الانسان هناك (١) ما يحسنه ويبرزه من آثار القوة والنشاط والعلم النافع . والذي لا تبدو منه عندهم هذه القوة لا تدوم له شهرة ولا يعدونه مبرزاً

سؤال من هند للافغاني

لما انتشرت المدنية الانكليزية في اقطار الهند واقبل متأدبو الهنود من مسلمين وغير مسلمين على مطالعة كتب الانكليز العلمية والفلسفية كثر بينهم عدد القائلين بصحة المبادى الطبيعية وسموا انفسهم (طبيعيين) . وهذه الحالة لازمة عن دخول العلم الطبيعي الى البلاد وقد ظهرت آثارها في بلاد الشام ومصر ولم تنفرد الهند بها . وهي عبارة عن نزاع بين مبدأين . الاول مبدأ (العلم الحسي) الذي يقضي بان لا يسلم الانسان بشيء الا متى قام عليه برهان عقلي . والثاني مبدأ (الدين) وهو التصديق بالشيء وان لم يقم عليه دليل عقلي وهو ما يسمونه (التسليم) وان بين هذين المبدأين ما بين الارض والسماء

فلما استشرى خطب الطبيعيين في الهند كتب احد ادباء الهند الى السيد جمال الدين

(١) لما كنا في مصر اعتدنا عند الكلام عن الغرب ان نقول (هناك) اما والجامعة اصبحت تُنشر في الغرب فالواجب ان نقول (هنا بعد الآن

يستفتيه في مذهبهم. وكان ذلك في ١٩ محرم سنة ١٢٩٨ ومما قاله في كتابه اليه « لا تخلو بلد او قصبة من جماعة يلقبون بهذا اللقب «نيشري» ويظهر لنا ان من تعلق عليهم هذا اللقب ينمو عددهم على امتداد الزمان خصوصاً بين المسلمين . ولقد سألت اكثر من لاقيت من هذه الطائفة ما حقيقة النيشرية وفي اي وقت كان ظهور النيشريين . وهل من قصد هذه الطائفة بمسلكها الجديد عندنا ان تقوم عماد المدنية ولا تعدو هذا القصد او لها مقاصد اخري. وهل طريقتهم تنافي اصول « الدين المطلق » او هي لا تعارضه بوجه ما . واي نسبة بين آثار هذا المشرب وآثار مطلق الدين في عالم المدنية والهيئة الاجتماعية الانسانية . فان كانت هذه الطريقة من النحل القديم فلم لم تنشر بيننا ولم نعهدها دعاة الا في هذه الاوقات. وان كانت جديدة فما الغاية من احداثها واي اثر يكون عن الاخذ بها

« ولكن لم يفدني احد منهم عما سألت بجواب شافٍ كافٍ . ولهذا التمس من جنابكم العالي ان تشرحوا حقيقة النيشرية والنيشريين بتفصيل ينقع الغلة ويشفي العلة والسلام »

الاحتكاك

بين الغرب والشرق . المبدأ الحديث والمبدأ القديم
فيلسوف لم يُذكر اسمه باللغة العربية

ويخيل للناظر نظراً سطحياً ان هذا السؤال كان عبارة عن استفتاء من السائل في نفع العلم الطبيعي او ضره . ولكن الناظر في اعماق الامور يرى ان هذا السؤال اهم من ذلك كثيراً . لانه كان نتيجة اول احتكاك بدا في العصر الحديث بين العلم والمدنية الاوروبية الحديثة من جهة والاديان الشرقية ومدنياتها القديمة من جهة اخرى . فالجواب عن هذا السؤال يشمل امرين عظيمين عليهما يتوقف خراب الشرق او عماره . الاول علاقة العلم بالدين . وهذا الامر وان كان في اقصى درجات الاهمية للشرقيين لان مدنياتهم القديمة اكثرها ديني محض الا انه مع ذلك اقل اهمية من الامر الثاني الذي نبسطه هنا

كلنا نعرف الشرق لاننا ابناؤه . واذا انتقل الانسان منه الى وسط كالوسط الاميركي والاوروبي مثلاً فانه يزداد علماً بسرّ انحطاطه وضعفه . فكم من مرة ونحن في مصر قرأنا للسياح والسائحات الاوروبيين والاميركيين في الشرق انتقاداً مرّاً على اخلاق ابنائه . ولا نزال نذكر جواب احدهم وقد سئل ما الذي ادهشك في سياحتك في الشرق اكثر من كل امر فاجاب : الذي ادهشني وضحكت له كثيراً جلوس الناس في النهار والليل في

القهاوي والاماكن العمومية بسكينة الفلاسفة وسذاجة الاطفال وهم يدخنون ويتحادثون كان بلادهم اعز البلاد منالاً وكانهم انعم اهل الارض بالاً . واصلحهم حالاً . واوفرهم مالاً . مع انهم هم وبلادهم على ما نعلم من الضعف والوهن والانحطاط . فهذا الجواب الذي كوى به السائح الغربي احشاء الشرق كما بفولاذ محي جواب صحيح ينبش علة الشرق من مدفنها ويذكّرنا المبادىء التي يجب ادخالها اليه والجراثيم التي يجب قتلها فيه

ولسنا نبحث هنا في علل المشرق لتفيض في هذا الموضوع بل بحثنا هنا في ان جواب الافغاني على ذلك السؤال كان جواباً يقطع سبيل الارتقاء على امم المشرق الاسلامية ويناقض مصلحة المدنية فيه ويحل عزائمها . سئل احد علماء الالمان بماذا ارتقت امتكم بعد انحطاطها وقويت بعد ضعفها . فاجاب انها قويت وارتقت برجلين: بسمارك ونيتش(١) والناس في الشرق يعرفون بسمارك جامع الامم الالمانية ومنشيء وحدتها وصارع فرنسا في حرب السبعين . ولكنهم لم يسمعوا اسم « نيتش » حتى الآن على ما نظن

وليس غرضنا في كلامنا هنا عن فيلسوف الالمان الاكبر ان نبسط مبادئه و ترجمته فاننا ارجأنا هذا الامر الى فرصة اخرى ريثما نفرغ من مطالعة اهم كتبه وجمع مبادئها التي نشتغل بجمعها وغربلتها منذ سنتين . فنكتفي الآن بان نقول ان فكر « نيتش » هو الذي دفع المانيا ذلك الاندفاع في سبيل الرقي . وقد ظهر تاثير افكار نيتس في اكثر فلاسفة المتاخرين انكليز وفرنسويين ومشاهير الكتاب العصريين في اوروبا واميركا فصاروا يسمون « نيتشياً » كل كاتب تظهر في كتاباته آثار فكر فيلسوف الالمان . ولا نتعرض هنا لمبادئه الدينية لانه تطرف بها تطرفاً قبيحاً لا نظنه صدر عن رجل عاقل قبله ولا بعده(٢) فانه يسمي الاديان نسيج خرافات وترهات ويحمل على العاطفة الدينية حملة المجانين لسخفها وافنائها . و بودنا لو وقفنا على راي الفيلسوف رنان بشير العاطفة الدينية في اوروبا في مبادىء هذا الفيلسوف . ومن اقواله في الدين انه هو الذي افسد العالم وافنى نشاط البشر وعوّدهم الخمول والكسل وانه لولا الدين لكان العالم اليوم ارقى منه الآن . الى غير ذلك من الاقوال الواهنة الصادرة عن طبيعة قوية شرسة لا تفهم ان العاطفة الدينية اي اتجاه المخلوق نحو الخالق المجهول وتأمله في مبداه وحاله ومصيره امر مغروس في فطرة الانسان وطبيعته ولكن اذا كانت مبادئه الدينية واهنة ضعيفة فمبادئه السسيولوجية غاية في المتانة .

---

(١) Nietzche

(٢) نيتش توفي بعد ان جن

ونقول غاية في المتانة والغرض من قولنا هذا انها متينة عند الفلاسفة الماديين والرياليست لا الايديياليست . وهي قائمة على دعامة واحدة « القوة والنشاط » (١) يجب على الانسان ان يكون قوياً نشيطاً . فكل ما يزيد قوته ونشاطه حسن صحيح وكل ما يضعف قوته ونشاطه باطل قبيح . يجب انماء قوى الانسان العقلية والبدنية واعطاؤها مداها وكل ما يوقف نموها هذا باطل يجب تركه . نحن نريد اقوياء اصحاء اما الضعفاء والخاملون والكسالى فادفعوهم من طريقكم واذا اقتضى الامر تغييبهم من هذا الوجود فساعدوهم على هذا الغياب (٢)

واأسفاه . اننا لا نقول ان هذه المبادىء مبادىء كمالية جدير بالانسان العاقل ان يتبعها ولكن نقول ان الشعب او الفرد الذي يريد الحياة في هذه الدنيا لا بد له من مراقبتها والاحتياط لها لئلا يدوسه اصحابها . لان الخرفان لا يعيشون في هذه الدنيا واذا عاشوا فيها فللسلخ وجز الصوف ودر اللبن . وهذه الامم الاوروبية مندفعة من كل جهات اوروبا واميركا بمبادىء نيتش هذه تدوس في الشرق وعير الشرق كل ضعيف يعترض مسيرها . فماذا يفعل تسليمنا الخرفاني في الشرق وسكينتنا الفلسفية وجمودنا البوذي وتأملنا الكونفوشيوشي وايماننا الاسلامي ورفقنا المسيحي — ماذا تفعل كل هذه الفضائل السلبية بمزايا الغربيين الايجابية التي غرضها الاستيلاء على الارض (بالقوة والنشاط) عقلياً وبدنيا بقطع النظر عن عاطفة النفس وقوتها الدينية

وان قيل ان الآلة المراد بث روح القوة والنشاط بها في نفوس امم المشرق الاسلامية ودفعها في طريق العمل كما اندفعت اليه امم المغرب بمبادىء نيتش وغيره انما هي هذا الدين . اذ لا مؤثر فعال في الشرق مثله . فهذا الاعتراض مقبول عند المفكر في الامور تفكيراً سطحياً ولكنه مردود عند الناظر فيه بامعان . فانه اذا كان المقصود من تحميس الامم للدين جمعها بهذه الجامعة فبلوغ هذا الغرض امر ميسور . ولكن نريد ان نسأل ما هي الفوائد التي تنجم عن هذا التحميس وهذا الجمع . اننا لا نرى هناك الا فائدة واحدة وهي اتخاذ الجامعة الاسلامية آلة لمقاومة اوروبا مقاومة سلبية . ونعني بالمقاومة السلبية مقاومة تزعج المقاوَم (بفتح الواو) دون ان تبطل مقاصده وبالتالي دون ان تنفع المقاوِم (بكسرها) نفعاً حقيقياً . فهي آلة للازعاج لا للفائدة . وازعاجها هذا يشمل الفريقين اي الخصمين

(1) Force, energie

(٢) كتاب نيتش (بدء الظلام عند الاصنام) يعني عند المعبودات

La Crepiscule des idoles

الا اذا وجدوراءها قوة حربية تنفذ المراد الحقيقي منها وهذا حلم ووهم في حالة العالم الحاضرة. اما القول بان الامم الاسلامية يمكنها باجتماعها حول لواء الدين ان تبلغ ما بلغت اليه الامم الغربية عند اخذها باصول العلم الطبيعي فقول من لا يعرف شيئًا من تاريخ العمران في الارض وطبيعة البشر فيها . فان هذا القول ينتج شرّين . (الاول) تثبيط العزائم عن العلم الطبيعي الذي عليه بناء المدنية في هذا العصر . فيصبح الفرد اذا كان مؤمنًا ايمانًا حقيقيًا مكتفيًا بهذا الايمان عن كل شيء سواه لاعتقاده انه متى تمّ الايمان لشخص اقبلت عليه الدنيا بعد ذلك عفوًا من تلقاء نفسها . فيصبح ويبيت قائلاً (الحمد لله انني مؤمن) ويرى نفسه كبيرًا بهذا الايمان وان كان اصغر رجل في الدنيا . او اذا كان ممن اجتذبته مبادىء القناعة والرضى بالكفاف اكتفى بسذاجته القلبية وطهارة سيرته وسريرته عن كل عمل وكل اقدام في الدنيا . ما الفائدة من هذا السعي اذا كانت الارزاق مقسمة بين الناس والحياة باطلة والدنيا زائلة . اذا فائته خيرات الارض فانه سيتمتع بخيرات الآخرة . فيا طبيعة البشر لله ما اجملك حين تكونين مخلصة ظاهرة طهارة حقيقية . ولكن هذا الجمال من سوء الحظ ينشىء الضعف في النفس بدل القوة والنشاط والحماسة المطلوب انشاؤها كما تقدم . بقي (الشر الثاني) وهو ينتج عادة عن اختلاف مشارب الناس باختلاف طبائعهم الوراثية وتربيتهم الخصوصية والعمومية وحوادث حياتهم . فانك بينما ترى الشعب مثلاً منصرفًا الى الدين بتلك المبادىء التي تقدم ذكرها باذلاً في سبيلها كل مرتخص وغال حتى حياته في بعض الاحيان ترى رؤساءه واكابره واصحاب الاثرة فيه ورجال العمل الذين ينشأون على مبادىء غير تلك المبادىء منصرفين عن الدين في الباطن وان كانوا مقبلين عليه في الظاهر وهمهم استخدام ذلك الشعب الديّن المسكين في تحصيل ثروة لهم وخدمة مقاصدهم السياسية والدينية والاجتماعية . فهل تقوم امة هذه حالها

وان قيل ان المدنية الاسلامية القديمة جمعت بين « القوة » والدين معًا وأنشأت بها سلطنة واسعة وتمدنًا عظيماً فنحن لا ننكر انه يمكن الجمع بين الامرين ولكننا ننكر قيام امة وامتداد رواق عزها اذا كانت تجعل امورها الدينية مقدمة على امورها المدنية اي تجعل انماء العاطفة الدينية في النفس مقدمًا على انماء نشاط الفرد وقواه العقلية والبدنية . اما الامم الاسلامية التي انشأت في ما غبر مدنيات عظيمة فقد كانت مسوقة الى ذلك بامرين الاول حب الفتح لاكتساب الثروة والثاني نشر الدين بين الامم طوعًا او كرهًا بحق الجهاد . « فحب الفتح وحب الجهاد » كانا اعظم مثير للهمم واكبر شاحذ للعزائم . وكأن مبادىء نيتش

كانت يومئذٍ تتخلل نفوس الامم الاسلامية من طريق ديني فيؤثر فيها الدين ما تؤثره اليوم مبادىء نيتش في اصحابها . ولكن في هذا الزمان وقد تغيرت الارض ومن عليها لا تؤثر السياسة الدينية في بني الشرق غير زيادة ضعفهم وحلّ عزائمهم بازاء الحيتان الهائلة المندفعة عليهم لابتلاعهم . فجواب الافغاني للسائل من الهند بان علماء الطبيعة ضلوا السبيل وبان الاصلاح لا يرجى الا بالدين جواب يؤخر تقدم الشرق لو كان لكلام الافغاني تأثير كلي عليه

جواب الافغاني

وانظر بماذا اجابه . انه مثلاً كان يقدر ان يقول له ما يلي او مثله . وهو قريب من الجواب الذي كان ابن رشد يجيب به خصومه

« العلم الطبيعي من الامور المعقولة المحسوسة . والدين من الامور الالهية فلا تخلطوا هذا بذاك . استعملوا العلم الطبيعي في انماء قوة العقل والبدن والوقوف على اسرار الطبيعة وتقوية نفس الانسان وشحذ عزائمه بنواميسها واصلاح الارض بقوتها . واستعملوا الدين لسلامة النفس من الادران . كل واحد من هذين العلمين « علم الطبيعة وعلم الدين » لازم لهذا المجتمع البشري . فيجب التوفيق بينهما لا تفريقهما . واذا رايتم في اهل العلم الطبيعي الذين تسمونهم « نيشريين » او في اهل الدين الذين تسمونهم ما تسمونهم به نقائص ورذائل وموبقات فهذه الصغائر تنشأ في طبائع اصحاب العلم واصحاب الدين « لا في العلم والدين» اذ مثل رجل العلم ورجل الدين مثل اناء فيه ماء زلال . فاذا فسد الاناء وافسد الماء فما ذنب الماء »

ولكن الاستاذ جمال الدين رحمه الله لم يجب بمثل هذا الجواب بل اجاب جواباً آخر يدهش قارئه . فانه خلط متقدمي فلاسفة اليونان مثل ديموقراط وابيقور وديوجينوس بعلماء العصر الحديث مثل درو بن وفولتير ورسو واندفع عليهم وعلى جميع من اشتغل بالعلم الطبيعي اندفاعاً ما كان يخطر لاحد ببال (١) فتصورنا حين قراءة ذلك الجواب المدهش

(١) اليك نتفاً مما قاله في جوابه « النيشر اسم للطبيعة وطريقة النيشر هي تلك الطريقة الدهرية التي ظهرت ببلاد اليونان في القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح ومقصد ارباب هذه الطريقة محو الاديان ووضع اساس الاباحة والاشتراك في الاموال والابضاع بين الناس عامة » قلنا وهذه التهم التي الصقها الافغاني بالطبيعيين لا يجهل صبيان المدارس

الافغاني رحمه الله طفلاً ثائراً في يده فأس يحاول بها ان يهدم اساس العلم الطبيعي لرده عن الشرق . ولكنه لا يؤثر فيه قطعياً

اسباب هذا الجواب

وبعد قراءة هذه الرسالة فكرنا طويلاً في الاسباب التي حملت الافغاني على هذه الحدة والشدة التي لم تجر العادة بصدورها عن حكماء الزمان . فلاح لنا منها عدة اسباب

اولاً — ان الافغاني رحمه الله كتب رسالته هذه في الهند بعد اخراجه من مصر . وكان خصومه في مصر قد اتهموه بالكفر والزندقة والمروق من الدين لتحليله جزئيات كانوا يحرّمونها . ولما كان طامحاً الى امامة المسلمين الكبرى في جميع الاقطار الف هذه الرسالة التي حمل بها على العلم الطبيعي تلك الحملة المنكرة تبرؤاً من تلك التهمة . ولو لم يكن هذا من اهم اغراضه في كتابة رسالته لما جعل هذه الاهمية لذلك السؤال الصغير الذي القاه عليه سائل من الهند . فان خصومه لم يكونوا فولتير وروسو ودروين وديموقراط وايقور والطبيعيين بل كان خصومه وخصوم بيته وخصوم الشرق باسره المستعمرين الذين اكتسحوا المشرق وتسلطوا عليه

اليوم انها باطلة . وقال عن العلامة دروين « وكأني بهذا المسكين وما رماه في مجاهيل الاوهام ومهامه الخرافات الا قرب المشابهة بين القرد والانسان وكأن ما اخذ به من الشبه الواهية أُلهية يشغل بها نفسه عن آلام الحبرة وحسرات العماية » وقال في موضع آخر عن علماء الطبيعة « كانوا يظهرون في اوقات بدعوى السعي في تطهير الاذهان من الخرافات وتنوير العقول بحقائق المعلومات وتارات يتمثلون في صورة محبي الفقراء وحماة الضعفاء وطلاب خير المساكين » وقال في صفحة اخرى « وضعوا مذاهبهم على بطلان الاديان كافة وعدوها اوهاماً باطلة ومجعولات وضعية » قلنا . مع ان دروين وروسو وفولتير الذين حمل عليهم حملته المنكرة لم يكونوا ملحدين فانهم كانوا يؤمنون بالله ايماناً صريحاً ظاهراً في كتبهم . ومنتهى الغرابة في قوله ان الفرنسويين كانوا شعباً عظيماً حتى ظهر فيهم فولتير وروسو « يزعمان حماية العدل ومغالبة الظلم والقيام بانارة الافكار وهداية العقول فنبشا قبر ابيقور الكلبي واحييا ما بلي من عظام الناتور اليسم « الدهريين » ونبذا كل تكليف ديني وغرسا بزور الاباحة والاشتراك وزعما ان الآداب الالهية جعليات خرافية كما زعما ان الاديان مخترعات احدثها نقص العقل الانساني وجهر كل منهما بانكار الالوهية ورفع

ثانياً ـ ان المستعمرين الاوروبيين في دخولهم الى الشرق لامتلاكه وتعميره انما يحملون بين ايديهم شعلة العلم الطبيعي الذي يصلحون به الارض فيحفرون الترع و ينشئون الجسور والسكك الحديدية و يبنون المنازل الفاخرة ويجلبون البضائع النفيسة و يقيمون المعامل النافعة . وغني عن البيان ان هذه النعم العديدة التي لا ينكرها الا «كل مكابر ولجوج مدابر» كما كان يقول محمد عبده من مزاياها ان تجذب اليها والى اصحابها الناس الذين انتفعوا بها و نخص منهم الناشئة الجديدة التي تكره وهي في اول عمرها الوقوف والجمود الذي اعتاده الناس في الشرق ولذلك تتحمس للاصلاحات الاجتماعية النافعة تحمساً شديداً . وظاهر بذاته ان المتأدبين من ابناء الهند وفارس وافغانستان الذين ادهشتهم اصلاحات المدنية الغربية الداخلة عليهم بدءوا يميلون الى المبادىء الغربية . ومتى مالوا اليها ميلاً تاماً زالت او نقصت سلطة ائمتهم عليهم . فاصبح من مصلحة هؤلاء الائمة ان يبرهنوا لهم ان هذه المدنية الغربية كلاشيء وان النهضة الحقيقية التي ترجى لهم انما تكون

كل عقيرته بالتشنيع على الانبياء » قلنا من العجب ان يجهل السيد الافغاني التاريخ الى هذا الحد فاولاً ان الشعب الفرنسوي بعد الثورة اعني بعد فولتير و روسو كان اعظم واقوى من قبلها لانه على زمن نابوليون الاول بلغ اوج العظمة والسيادة . وثانياً ان ما نسبه الى فولتير و روسو يدل على ان الاستاذ الافغاني سمع بمبادئها ولم يقرأ كتاباً لها لان الاثنين يؤمنان بالله ايماناً جهرا به في كل صفحة من كتبهما . ولفولتير بيتان مشهوران باللغة الفرنسوية وقد ترجمها صاحب الجامعة لما كان في صباه ينظم شعراً ترجمة حرفية في بيتين هما على ما نظر اول واخر شعر ينشر له في الجامعة واليك البيتين

يحار عقلي بهذا الكون حيرته ... بساعةٍ في رمال القفر ملقاةِ
فها نصدق منا قول من زعموا ... بانها وجدت من دون ساعاتي

وزد على ذلك ان روسو كان في زمنه الخصم الاكبر والعدو الالد للماديين الفرنسويين وله مناظرات شديدة معهم وهم معروفون بفرسا بالانسيكلوبيديين . فما كان يخطر لنا ببال ان رجلاً كالافغاني رحمه الله يرمي الكلام على علاته هذا الرمي وينسب ما نسبه الى اناس ضحوا مثله راحتهم وقواهم وحريتهم في سبيل خدمة بني الانسان في الارض . ومنتهى الاعجاز في قوله « لا جرم ان مزاج الانسان الكبير «يعني عموم النوع » بما اودع الله فيه من الشعور الفطري وهو اثر الحكمة الالهية العامة يمج هؤلاء الخونة ولا يحتمل وجودهم في باطنه فيدفعهم كما تدفع الفضلات من المعدة ! او الدنانة من المنخر او النخامة من الصدر »

على ايدي ائمتهم. فقد يمكن ان تكون رسالة جمال الدين صوتاً صارخاً بالهنود والايرانيين والافغانيين وربما الاتراك والمصريين ايضاً لتفهيمهم ان الاصلاح الذي يأتي على يد السيد جمال الدين خير من الاصلاح الداخل على ايدي الانكليز

ثالثاً — لا نتعرّض لعقيدة السيد جمال الدين لاننا لا نعرف شيئاً عنها. وتكفينا شهادة الاستاذ تلميذه ورفيقه الشيخ محمد عبده بانها «كانت صحيحة» وما رماه به خصومه يوم كان في الاستانة من انه قال في خطبة القاها «ان النبوءة صنعة كباقي الصنائع» انما هو سلاح يحارب به الخصوم خصومهم حين تقصر الحجة. وكذلك ما رماه به بعضهم في مصر من الكفر لا يصح ان يُتخذ دليلاً على حقيقة عقيدته لانه من ذاك القبيل. ولكننا نلاحظ هنا ملاحظة لا نحجم عن ذكرها وهي تشمل جميع الاديان الحية الان. فان المستنيرين في كل امة وكل دين عند نظرهم في امور دينهم يجدون فيها اشياء بودّون لو انها لم توجد ويدعون الى غض النظر عنها. اي انهم يعتقدون في اعماق انفسهم — في اماكن لا يخرج منها راي لاحد ولا يدخل اليها راي احد — بصحة بعض المبادىء وبعدم صحة بعضها. ومتى وقع هذا الفصل والتفريق بين مبادىء الدين كان وقوعه بمنزلة وقوع الشك في الدين نفسه. ومتى وقع شيء من هذا لرجل عاقل صناعته النظر في شؤون الناس والتفكير والبحث لهم فانه يخلط للدين في نفسه ونفوس سامعيه وقارئيه خطة جديدة فيدعو حينئذٍ الى «نفع» الدين لا الى «صحته» اي انه يبني الدين على مبدا «النفعيين» فيبحث في آثاره وفوائده لا في مبادئه وقواعده. وآثار هذا القصد ظاهرة في رسالة الافغاني رحمه الله. فانه في كل صفحة تقريباً يقول «لا ريبة في ان الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعي» «لن يستحكم اساس للتمدن بدون الدين البتة» ونحن لا ننظر هنا في ما يعود من الضرّ على الدين نفسه بجعله «نفعياً» فان مبداء «النفعيين» «الذين يجعلون «النفع» قاعدة كل مبدا ومقياسه لهو مبدا مردود عند الفلاسفة الايديالييست الذين يعتقدون بوجود «الخير بذاته» و «الادب بذاته» بصرف النظر عن منافع الناس بل عن وجودهم نفسه. فانهم يقولون ان الخير بذاته والادب بذاته موجودان ثابتان وان لم يوجد في الارض انسان. واذا اضمحلت الكرة الارضية غداً ونشأ منها بعد اضمحلالها كرة جديدة وعاش عليها بشر من جديد فان الخير بذاته والادب بذاته ينبتان في هذا المجتمع البشري الجديد كما كانا قبل اضمحلال الارض. هذا مبدا القائلين بوجود الخير بذاته والادب بذاته وهو يناقض كل المناقضة مبدا النفعيين الذين يعلقون المادىء على نفعها لا على

صحتها. والدين متى تدهور في « هاوية النفع » فانه يغيب فيها ولا يعود يخرج منها . فاذا نفع سنة او جيلاً او نصف قرن او قرناً كان نفعه هذا بمثابة خروج دمه من جسمه ولا يعقب هذا الخروج حياة. فالدعوة الى « نفع الدين » دعوة تقتل الدين غداً وان انتفع به اليوم. وهنا نصل الى المقصود من هذه الشذرة فاننا نميل الى الترجيح بان السيد الافغاني رحمه الله كان مخلصاً في دعوته هذه ونعتقد انه اذا لم يكن مخلصاً فيها كلها فلا شك انه كان مخلصاً في نصفها مثلاً انه حين يدعو هذه الدعوة الشديدة الى الدين الاسلامي ويذكّر امراء الشرق بسابق مجدهم وعزهم قد يكون غرضه جمع كلمتهم وتاليف قلوبهم على المستعمرين الداخلين عليهم فهو معذور في اتخاذه الدين آلة سياسية لجمع الشرق على الهاجمين عليه الطامحين اليه ولكن اذا لم يكن مخلصاً في دعوته من هذا الوجه فانه مخلص فيها من وجه آخر

ان السيد الافغاني ربي في بيت الامارة وعاش في وسط طبيعة عظيمة حرًّا متعوداً السيادة. وهو فوق ذلك ذو طبيعة متحمسة شديدة. قال مترجمه الشيخ محمد عبده « ففارق الاستانة مظلوماً في حقه مغلوباً لحدته » وقال في موضع آخر « طموح الى مقصده اذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان » فلما ساح الافغاني في اوربا وشاهد فرنسا وانكلترا لم تفته المقابلة بين حالة الغربيين وحالة بلاده فانه راى في الغرب ازدحام المنازل وقذارة احياء العملة واكدرار الجو بالبخار والدخان والضباب وشاهد قوماً يصارعون العناصر والطبيعة طول النهار فيركضون ويعملون ويتعبون في بناء اعظم مدنية قامت في الكرة الارضية . شاهد علماء وساسة وكليات ومجالس شورى ومتاحف ومكاتب ومصانع ومزارع وجرائد وملاهي . وشعباً كنجوم السماء يدور حولها ويعيش منها وبها. ثم التفت فماذا رأى ؟ راى ان الرذائل التي تركها في قبائل افغانستان والهند وايران فاشية في قلب تلك المدنية الراقية العظيمة . ابصر القتل والسرقة والغش والعدوان والظلم والغدر والطمع والقسوة الخ .. بل راى منها في قلب المدنية العظيمة ما لم يرَ مثله في القبائل الضعيفة العائشة في سذاجة الطبيعة . فقال في نفسه حينئذٍ ان هؤلاء الناس يتعبون في بناء المدنية على غير هدى. وكان رحمه الله يعيش بالفكر من اجل الفكر كجميع المتحمسين الايديياليست . والدهر وان اناخ عليه بكلكله وكواه بنار اختباراته لم يجعله « نفعياً محضاً » ويصرف فكره الى الفوائد العملية بدل الفوائد النظرية . فعاد من اوربا وصاح بقومه في هذه الرسالة تلك الصيحة يقصد بها تفهيم اهل الشرق ان

مدنيتهم المبنية على الدين خير من مدنية اوربا المبنية على لا دين . فهو مخلص ولا شك في صياحه هذا . ولكن هذا الحكم في رايِنا حكم سطحي لان جميع المدنيات الدينية التي قامت في الارض قبل الاسلام و بعده لم تخلُ في اي زمن من ازمانها من تلك الرذائل والموبقات التي تحق الشكوى منها . فليست الرذائل والموبقات في المدنية ولا في الدين ولكن في الطبيعة البشرية الضعيفة . ولم يثبت حتى الان ان الدين في اي زمن من الازمان قدر على استئصالها الا في بعض خواص الناس . والمدنية الحقيقية تفعل مثل هذا الفعل في الخواص ايضاً . فالاصلاح الديني والاصلاح المدني في الارض لا يثمران الثمر المطلوب اي لا ينشئان انسانية صالحة جديدة الا بعد « اصلاح اجتماعي عام » يمحو الفقر والظلم والجهل من بين الانام . وهذا عمل على اجتماعي سياسي لا عمل ديني

هذا ما نقوله في الاسباب التي حملت الافغاني على كتابة رسالته . و يرى القارىء منها اننا بدأنا في الدخول في لباب الموضوع والنزول الى اعماقه . وسنشرع في الجزء التالي في تلخيص هذه الرسالة تلخيصاً يدل على قوتها وضعفها . وسنرى حين المقارنة بين الافغاني وتليذه محمد عبده ان التلميذ كان خيراً من استاذه من عدة وجوه

التلغراف اللاسلكي

و زيارة سوري له في بلدة برنت روك ماس (١)

﴿ لطف الاستاذ فسيندين ﴾ اسعدني الحظ وقادني الانفاق الى بلدة برنت روك ماس التي فيها ادارة التلغراف الاسلكي . فقصدت مكان الادارة ولما هممت بالدخول وجدت على الباب كتابة خلاصتها (ان الدخول ممنوع لغير المامورين) فاسفت لذلك كثيراً وعدت خائباً . وفيما انا اقلب طرفي في عمود

(١) كانت الجامعة فيما نظن اول من سمى « التلغراف بلا سلك » « لاسلكي » قياساً على « اللانهاية » و « اللاأدرية » وذلك في مقالة عنوانها « افريقيا والمسيو هانوتو » في سنتها الرابعة . و يظهر ان الكتاب اصطلحوا اليوم على هذه التسمية